مسرح اللامعقول :
إشكالية المصطلح وتماثل الرؤية والمفهوم

الأستاذ الدكتور

سعيد عدنان المحنة

المدرس المساعد

علاء عبد الكاظم عبد العالي

المقدّمة

تعد دراما اللامعقول نوعاً من أنواع الدراما التجريبية الحديثة ، التي ظهرت وتبلورت بعد الحرب العالمية الثانية كردّة فعل على اختلال الموازين العقلية والنظم المنطقية التي سببتها الحرب وزعزعت ثقة الإنسان بنفسه، وقد أثارت هذه الدراما ردود أفعال قوية ومتباينة في الأوساط الأدبية والنقدية نظراً لجرأتها ولا مألوفيتها ، فقد شكّلت ثورة على جميع النظم والقواعد الدرامية الأرسطية والتقليدية ، بل وتجاوزت حتى حدود العقل والمنطق سعياً وراء المطلق . فتعددت أسماؤها ومصطلحاتها ، واختلف كتّابها في المسميات التي يكتبون تحتها هذا النوع من الدراما وإن اتفقوا في الرؤية والهدف .

ـ أولاً : **المصطلح والمفهوم والرؤية** :

قبل الخوض في بيان مصطلح اللامعقول ومفهومه لا بدّ من الإشارة إلى الخلط الحاصل في التعاطي مع هذا المصطلح في ترجمات بعض النقّاد ودراساتهم . فهناك من يترجم الكلمة الإنجليزية (Absurd) ويريد بها (العبث) ، وهناك من يترجمها ويريد بها (اللامعقول) ، وآخر يستعمل الاثنين معاً دون تفريق أو تفادياً للّبس .

ويبدو أنّ هنالك فارقاً بسيطاً بين مصطلحي (العبث واللامعقول) ، فقد يكون الأول أقرب إلى المعنى الفلسفي ، في حين أنّ الثاني يكون أقرب إلى الأدب على اعتبار أنّ استعمال مصطلح (اللامعقول) واقترانه بالأدب تمخّض عن فلسفةٍ عُرفت بفلسفة (العبث) ، وعليه كان ظهور مصطلح العبث مقترناً بالفلسفة ابتداءً لا بالأدب .

يرى آرنولد. ب هنجلف أنّ اللامعقول: ((ترجمة اصطلاح (Absurd) بالحرف الكبير، في الحالة الاسمية، وهو المفهوم الدرامي المسرحي الروائي الذي يستند إلى فلسفة العبث، أو العبثية (Absurdity)، وعندما يكون الحرف صغيراً فإنّ الكلمة تشير إلى الصفة (تافه ، غير معقول) ويكون الاسم (تفاهة ، منافاة العقل) ولأنّ الكلمة الأولى الإنجليزية والفرنسية تشير إلى الفلسفة كما تشير إلى الأدب الذي يستند إليها، يُصبح من المفيد ترجمتها بشكلين : (لامعقول) عند الإشارة إلى الأدب ؛ و(عبث) عند الإشارة إلى الفلسفة))[1] .

وقد عرَّف قاموس أكسفورد الأقصر كلمة (لامعقول) أنّه : لا متناغم وغير منسجم مع العقل أو اللياقة ، وفي الاستعمال الحديث ؛ ما كان واضح التضاد مع العقل، وهو مضحك وسخيف[2]. كما يعرِّف (أي. أس. هورنبي) في قاموسه مصطلح : (Absurd) بأنه (unreasonable, foolish, ridiculous)، أي : ما هو : (منافٍ للعقل ، سخيف ، مثير للضحك)[3] .

وتعني كلمة (أبسورد) اللامعقول أو السخيف ، وهي مشتقّة من الكلمة اللاتينية (أبسوردوس) التي تعني الأصم أو الغبي[4] . وقد ورد في المعجم المسرحي كلمة (لامعقول) ((للدلالة على كلّ ما هو غير منطقي))[5] .

ويضيف الدكتور نعيم عطية : أنّ اللامعقول هو النشاز وانعدام التناسق وهو ما يثير الضحك ، بل وما يثير الأسى أيضاً ، إنّه الخلو من الهدف والانفصام عن الأصل ممّا يجعل التصرّف غير مبرّر وغير منطقي والكلمة جوفاء . وكلّ هذا انعكس في مسرح اللامعقول على الشكل فجاء البناء الدرامي من ذات النسيج الذي غزل منه المضمون ، وهكذا جاء نشازاً معدوم التناسق خالياً من الهدف مثيراً للضحك والبكاء[6] .

كان هذا على صعيد اللغة، أمّا على صعيد الدراما والأدب، فقد ارتبط مصطلح (مسرح اللامعقول) بنتاج مجموعة من المسرحيين الأوربيين والأمريكيين في خمسينات وستّينات القرن العشرين الذين اختصّت أعمالهم بالتعبير عن موضوعة اللامعقول (Absurd) في الفلسفة الحديثة . وهي الموضوعة التي شاعت بصورة خاصة بعد نشر (البير كامو) كتابه (أسطورة

سيزيف سنة 1942)، ومعنى اللامعقول هو : الإحساس بعبثية وسخف الحياة الإنسانية وكونها منافية للعقل في جوهرها الأساس .

وارتبط ذلك الإحساس بمشاعر الضياع ، اللاهدف ، الحيرة ، والاغتراب ، وقد جسّد مسرح اللامعقول هذه الفكرة بأصدق صورها من خلال الحوارات غير المترابطة ، المفككة ، والمكرّرة والفارغة من المعنى ، والسّلوكيات غير المفهومة ، والحبكات التي يغيب عنها مفهوم التطوّر المنطقي الواقعي للأحداث ، بحيث مثّل الإحساس بسخف ولا معقولية الواقع الإنساني مصدراً غنياً للكوميديا[7] .

إنّ أوّل من أشارَ إلى مصطلح (دراما اللامعقول) هو الناقد الإنجليزي (مارتن أسيلين) في كتابه الذي يحمل العنوان نفسه (Absurd Drama–1962)، وقد عرّفهُ بأنّه : نوع من الاختزال الفكري لنمط معقّد من التشابه في التناول والطريقة والتقليد ، ومن الأسس الفنية والفلسفية المشتركة ، سواء أكان إدراكها بوعي أم بلا وعي ، ومن التأثيرات الناجمة عن رصيد مشترك من التراث . مثل هذه التسمية تكون مفيدةً وصالحة لا بعدّها تصنيفاً ملزماً أو جامعاً مانعاً ، بل لمساعدتها إيّانا على فهم واستيعاب العمل الفنّي ضمن توجّهٍ ما[8] .

وهذا الموقف لأسيلين يؤكّده (جون رسل تيلر) في موسوعته بأنّ مسرح اللامعقول : (Theatre of the Absurd) هو : ((مصطلح أُطلق على مجموعة من المؤلفين المسرحيين في العقد السادس من القرن العشرين لم يعدّوا أنفسهم مدرسة ولو أنّهم بدؤوا يتخذون مواقف معينة من محنة الإنسان في الكون ... تشخص محنة الإنسانية بوصفها لا هدف في وجود غير منسجم مع ما يحيط به))[9] . والتي يجسّدها (سيزيف) البطل العبثي في عمله اللامجدي الذي لا أملَ فيه[10] .

يظهر في سياق ما تقدّم بوضوح أنّ مصطلح (مسرح اللامعقول) يشير إلى مجموعة من السمات والخصائص التي تساعد على توصيف نمط ما من الكتابة لدى بعض الكتّاب الذين لا ينتمون إلى مدرسة أدبيةٍ أو فنيةٍ منتظمة .

فإذا كان هؤلاء الكتّاب الذين يُطلق عليهم كتّاب العبث أو اللامعقول لا يؤلّفون فيما بينهم مدرسة واحدة أو حركة متضامنة كما هو الحال بالنسبة للرومانسية أو السريالية مثلاً ، فإنّ كلاً من هؤلاء الكتّاب يعدّ نفسه منعزلاً عن الآخرين ، وإنّ له عالمه الخاص ومعالجته الخاصّة للحقيقة ، ومنابعه التي يستقي منها إلهاماته وآرائه . وإذا كانت أوجه التشابه بينهم بادية للعيان فلأنّهم يعكسون في كتاباتهم انشغالات الكثير من البشر[11] .

وتأتي فائدة اصطلاح (مسرح اللامعقول) هنا في إبراز مجموعة خصائص بعينها توافرت لدى مجموعة من أولئك الكتّاب الدراميين في كتاباتهم ، ممّا يتيح فرصة النقاش في قياس ومتابعة تلك المزايا والسمات التي يشتركون فيها[12]. خاصة : ((عندما تنشأ ... أساليب جديدة في التعبير ، وتقاليد أو سنن جديدة في الفن))[13] .

ويتجلّى (اللامعقول) في الأعمال الأدبية: في غياب الرابطة المنطقية بين أجزاء العمل وبين العمل ومرجعه في العالم ممّا يؤدّي إلى اضطراب المعنى وصعوبة التفسير العقلاني ، ومن ثمّ جنوح العمل نحو الغرابة والإدهاش أو الإضحاك أو خلق الشعور بالتشاؤم . من هنا يمكن اعتبار اللامعقول طابعاً يدخل ضمن التصنيفات الجمالية (Categories esthetiques) مثل المأساوي والمضحك... إلخ[14].

يتخذ اللامعقول في المسرح مسميات عدّة ممّا يشير إلى حالة الاضطراب وعدم الاستقرار في التعاطي مع المصطلح ، إذ يعبّر عنه بمصطلح : (المسرح العبثي – Theatre de I' Absurd) والذي يدلّ على شكلٍ من أشكال الكتابة المسرحية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، عارضاً للحالة البائسة للوضع البشري ومطيحاً بمواضعات ومبادئ المسرح البرجوازي[15] .

استُعمل أيضاً مصطلح (اللامسرح أو المسرح المضاد – Anti Theatre) وهو تعبير تمّت استعارته من تعبير (لا مسرحية – Anti piece) ، والذي استعمله الروماني (يوجين يونسكو) كعنوان فرعي واصفاً به مسرحيته (المغنية الصلعاء) ، لبلورة موقف مطالب بهذه التسمية ، ويكون على غرار ما سُمّي باللارواية ، ومن ثمّ يمكن استعمال هذه التسمية لوصف مسرحياتٍ تحمل طابع العدمية وتطرح موقفاً تشكيكياً من كلّ الثوابت الاجتماعية والمسرحية، وبقدرة المسرح التعليمية والسياسية، وتمثّل موقفاً رافضاً على المستوى الجمالي والفلسفي والأيديولوجي[16]، وخروجاً على القواعد الأرسطية والتقنيات التي دخلت على الآداب منذ عصر الإحياء والنهضة الأوربية ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حتى منصف القرن العشرين[17] .

لقد استُعمل مصطلح (اللامسرح) للدلالة على ((كلّ شكل أداء وكلّ شكل كتابة يقوم على رفض المسرح السائد شكلاً ومضموناً ، من خلال رفض مبدأ المحاكاة والإيهام والتمثُّل ومشابهة الحقيقة ، وبالتالي فإنّ العناصر التي تكوّن المسرح التقليدي مثل الفعل الدرامي المبني على وجود تسلسل أحداث وشخصيات فاعلة في الحدث طُرحت فيه بشكل مُغاير))[18].

وقد يعبّر عن اللامعقول بـ(المسرح الطليعي – Avant – Garde Theatre) وهي تسمية غالباً ما تبدو عامة وغير دقيقة ، على اعتبار أنّ الطليعية في المسرح صفة تصلح لكلّ الحركات والتيارات التجديدية ومنها اللامعقول . فهي تطلق ((على كلّ عمل أو تيار أدبي أو فني يكسر الأعراف السائدة ويمهّد لمنظور جديد))[19] .

ولتوخّي الدقة في ذلك استُعملت تسمية : ((مسرح طليعة الخمسينات))[20]. للدلالة على مسرح اللامعقول . وقد تبنّى رائد مسرح اللامعقول (يونسكو) هذه التسمية في مسرحه، وذلك بقوله : ((يبدو أنّني من مؤلّفي مسرح الطليعة))[21] . وقال أيضاً: ((إنّ الفنّ الحقيقي المسمّى بالطليعي أو الثوري هو ذلك الفنّ الذي يبدو وكأنّه غير حالي ، نتيجة لمعارضته الجريئة لعصره ... إنّه مسرح على هامش المسرح الرسمي يبدو له متطلّبات عليا ، من خلال تعبيره وصعوبته))[22] .

و(المسرح الطليعي) هو مصطلح فرنسي الأصل يشير معناه إلى القيادة الجديدة في الحقل المسرحي، كما يدلّ على الحركة التجديدية التي كانت تتّجه نحو مزيد من التحرّر ، وقد يدلّ المصطلح إجمالاً على الكتابات المسرحية الجديدة التي تتضمّن تجديدات في الشكل والحرفية[23] .

فهي بمثابة بدعة في الأسلوب أو وعي جديد قائم على الابتكار واتّجاه تتخذه النزعة إلى التغيير لا يلبث أن يفرض نفسه لاحقاً ويغيّر كلّ شيء[24] .

وعليه يمكن القول : إنّ المسرح الطليعي يعمد إلى مخالفة القديم ويقوم بالإعداد والتهيئة لمسرح لاحق أكثر استقراراً ودواماً لكنّه لن يكون دائم الاستقرار والبقاء ، فكلّ مسرح ليس سوى مرحلة في تطوّر المسرح ، فالمسرح الكلاسيكي كان طليعة للمسرح الرومانتيكي ، الذي هو بدوره طليعة للمسرح الرمزي وهكذا[25] .

هناك من يطلق على مسرح اللامعقول: (مسرح المفارقات المضحكة)، أو (مسرح المتناقضات)[26]، أو (مسرح الاحتجاج والتناقض) ، إذ كتب (جورج ولورث) كتاباً تحت هذا العنوان تناول فيه مجموعة بارزة من كتّاب اللامعقول ومسرحياتهم ، من جملتهم (بيكيت ويونسكو وأداموف ... إلخ) انطلاقاً من أنّ ((أهم ما يقوم بين هذه المسرحيات من تشابهٍ هو أنّها تشترك في موضوع واحد هو : الاحتجاج ، وتقنية واحدة هي التناقض))[27] .

ويميل (جان بول سارتر) إلى هذه التسمية في مقاله : (المسرح : أسطورته وحقيقته) ، الذي يعترض فيه على مصطلح(مسرح اللامعقول) انطلاقاً من أنّ هذه التسمية هي نفسها غير

معقولة . فهو يرى في أيّ كاتب من كتّاب هذا المسرح أنّه : ((لا يعتبر العالم والحياة الإنسانية غير معقولين ، لا (جينيه) الذي يدرس العلاقة بين الصورة والوهم ، ولا (أداموف) الذي اعتنق الماركسية وكتب مؤكّداً (لا مسرح دون آيدلوجية) ، ولا حتّى بيكيت ... ما يمثله كلّ هؤلاء في الحقيقة هو اضطرام جذوة التناقضات الكامنة في أعماق الفن المسرحي ، وذلك إمّا عن طريق صراعاتهم الداخلية وإمّا عن طريق التعارض القائم بين كلٍّ من هؤلاء الكتّاب وزملائه ، فكلّ فن من الفنون هو بالضرورة مجموعة من المتناقضات))[28] .

وإذا كان ذلك صحيحاً فلا بدّ من القول : إنّ (مسرح اللامعقول) هو في حقيقته مسرح حر وغير مقيّد ، وغير مؤدلج ، فهو مسرح الحرية المطلقة ، إنّه يظهر كلّ الآراء ولا يتبنّى رأياً محدّداً ويطرح الأسئلة دون الإجابة عنها ، فيبدو الوجود في نظره لا معقولاً ، لذا فإنّ أفضل طريقة لالتماس حقيقة الوجود هي من خلال ذلك (اللامعقول) وليس من خلال معقول زائف ، على ما يرى أصحابه .

وأطلق آخرون – وهم قليلون – مصطلح (مسرح النزوة) على مسرح اللامعقول ، ولعلّهم أُولعوا بهذا الجانب من المسرح ، وهو الخاص بميله إلى التقلّب في الرأي بلا سبب ظاهر ، الأمر الذي نجده من الوهلة الأولى في حوارات مسرح اللامعقول، وخاصة تلك الحوارات التي تدور بين شخصيتي(فلادمير واستراجون) في مسرحية (في انتظار جودو) أو بين (العجوز والعجوزة) في مسرحية (الكراسي)[29] .

من خلال ما تقدّم نلاحظ تعدّد المفاهيم والمسميات المستعملة في التعبير عن (مسرح اللامعقول) حتى لدى كتّاب هذا المسرح أنفسهم ، فيونسكو مثلاً يعبّر عنه بـ(اللامعقول) أو(اللامسرح) أو(الطليعي). وقد يكون مردُّ هذا إلى تعدّد الثقافات التي تغذى منها كتاب هذا المسرح ، مما انعكس على كتاباتهم ورؤاهم ، فضلاً عن أنّ هؤلاء الكتّاب لا ينتمون إلى مذهب أو مدرسة أدبية بعينها لها قواعدها وأصولها المحددة – كالرمزية أو السريالية مثلاً – من شأنها أن تضبط أو تقنن نتاجاتهم ، فكلّ منهم كان حراً له عالمه الخاص ، وينطلق من ذاته للنظر نحو الوجود ، مع ملاحظة القواسم المشتركة التي جمعت بينهم خاصة ما يتعلّق منها بهموم الإنسان إزاء الحياة والوجود . ويظهر أنّ الحرية التي وفّرها لهم هذا النوع من الكتابة فيما يقولون ويكتبون ، قد وفّر لهم حرية التعاطي مع التسمية والمصطلح لهذا النوع أيضاً .

ثانياً : **في تماثل الرؤية والمفهوم** :

كان مسرح اللامعقول واحداً من مخرجات الحرب العالمية الثانية التي ألقت بظلالها على مفاصل الحياة ومنها الأدب والفن ، فقد خلقت هزة عنيفة ولّدت شعوراً باليأس وخيبة الأمل وحالة من الإحباط واللاجدوى دفعت الكثير من الكتّاب إلى النظر في آليات جديدة للتفكير والتعبير. فمما لا شكّ فيه ((أنّ عالم منتصف القرن العشرين قد فقد معناه في نظر كثير من الناس الذين يتمتعون بالذكاء ورهافة الإحساس ، وأنّه بكلّ بساطة لم يعد له معنى . لقد انحلّ ما كان يعتبر يقيناً من قبل ، وانهارت أُسس الأمل والتفاؤل الراسخة وفجأة وجد الإنسان نفسه أمام عالم مخيف وغير منطقي – أي باختصار (لا معقول) . لقد سقطت فجأة جميع عهود الأمل وجميع تفسيرات المعنى الغائي فإذا هي سراب خلب وهراء أجوف وصفير في الظلام))[30] .

وهكذا كان مسرح اللامعقول محاولة من محاولات الأدب والفن في السعي نحو استعادة الثقة بالإنسان . وقد أدرك مزاولوه أنّ من المتعذّر ارتضاء الأشكال الفنية والأدبية المبنية على قيم ومفاهيم فقدت صلاحيتها وتأثيرها . فجاء التعبير عن الإحساس الدرامي بالضياع من جراء اختفاء المسلّمات التي لم يكن يتطرّق إليها الشكّ من قبل ، مرتكزاً للعودة إلى الإحساس الأول : إحساس الإنسان بالدهشة من الوجود المحيط به ، والانبهار بما يجري حوله انبهاراً مشوباً بالقلق والحيرة[31] . ولهذا فإنّ مسرح اللامعقول يُعنى بالتعبير عن القلق والحيرة التي يحسّها الإنسان قبل الحقائق البكماء المطلقة[32] .

ممّا يفتح الطريق أمام كتاب اللامعقول للثورة والتمرّد على كلّ الأعراف والسنن السائدة والعبث بها، وهو عبث ((بالشكل الفني وقيوده الأيدلوجية التي تقيّد طرق تعبيرهم عمّا يحسّونه من لا منطقية الحياة، فمسرحهم هو محاولة لإعادة اكتشاف وتقديم الحقيقة الأصيلة للدراما في أنقى حالاتها كما يقول يونسكو))[33] . والكشف عن الأُسس العميقة الثابتة لها ، والتي تنبع من داخل نفسها[34] .

وهذا الموقف من دراما اللامعقول لا يختلف عن موقف (أسيلين) الذي يرى فيها بشكل عام : ((عالماً صوره صارمة وقاسية ومخيبة وبالرغم من أنّها تتخذ في معظم الأحيان قالب الخيالات المفرطة إلاّ أنّها مع ذلك واقعية في جوهرها ، بمعنى أنّها لا تتهرّب أبداً من واقع العقل الإنساني بما هو عليه من يأس وخوف ووحدة في عالم غريب وعدائي ... إنّ الواقعية في هذه المسرحيات نفسية وباطنية إنّها تستكشف أعماق اللاوعي الإنساني بدلاً من أن تحاول وصف المظهر الخارجي للوجود الإنساني))[35] .

فيسخر مسرح اللامعقول بقوة من ((عبثية الحياة المفعمة بالزيف والكذب من ذلك الغثيان... من أولئك البشر الذين يخفون وراء حركاتهم وأحاديثهم حيوانية مخيفة ... حتّى أنّك لتتساءل لماذا يحيا هؤلاء الناس؟... إحساس بالجدب والموات والآلية... ولهذا فقد بدا على هذه التجربة أنّها لا تخلو أيضاً من نزعة إلى النقد الاجتماعي... النقد للبرجوازية))[36]. ويضطلع مسرح اللامعقول بـ(لا معقولية) أخرى أكثر عمقاً هي : لا معقولية الوضع الإنساني ذاته في عالم فقد إيمانه ويقينه ... فعندما يصبح من المتعذّر تقبّل نظام كامل من القيم المبنية على إرادة حكيمة علوية ، فإنّ مواجهة الحياة تكون مريرة وقاسية .. وهي النتيجة الحتمية لمواجهة الحقيقة العارية ، لذا لم يواجه كتّاب مسرح اللامعقول الإنسان من حيث طبقته الاجتماعية أو بيئته التاريخية أو تجاربه الجزئية اليومية بل من خلال أساسيات مركزه في الوجود[37] .

إنّ مسرح اللامعقول وفق هذه الرؤية يمكن أن يكون وسيلة في مواجهة عالم فقد معناه وهدفه وجدواه ، وذلك من خلال زعزعة أساسات ذلك العالم والعمل على تحطيمها، والسعي لإيجاد منظور جديد يتطلّع إلى محاولة إعادة الثقة التي فُقدت من جراء ذلك العالم ، عبر طروحات وأفكار مغايرة واجهت كلّ ما هو ثابت ومطلق .

لذلك يرى مسرح اللامعقول أنّ تأليف مسرحية ما أشبه ما يكون بإعلان الحرب : ((فالمؤلف يعتزم الكتابة حين يكون لديه شيء جديد يقوله ، شيء لم يسبق لأحد أن قاله ، أو لم يعرف أحد قبله كيف يقوله ، وإلاّ فأحرى به أن يلزم الصمت ؛ لذا فإنّ إقدام المؤلف على قول ما يريد أن يقول وفرض سلطان تفكيره على الآخرين هذا أشبه بحملة يشنّها على تفكير الآخرين ، ولكي تنمو الشجرة يتعيّن عليها أن تهزم المادة التي تعوق ظهورها ، ... وهكذا يشبه الفنان رجلاً ثائراً لا ينقل ولا يُقلّد ، إنّما يكافح التقاليد البالية والفن الموروث ليخلق ويجدد))[38] .

ووفق هذا المعنى يمكن لهذا المسرح أن يقوم بدورين : ((الأول والأوضح دور هجائي، عندما ينتقد مجتمعاً تافهاً خؤوناً . والثاني وهو المظهر الأكثر إيجابية يبدو عندما يجابه العبثية في مسرحيات يكون الإنسان فيها منزوعاً عن الظروف الطارئة كالوضع الاجتماعي والسياق التاريخي ، وفي مواجهة خيارات أساسية ، هي الأوضاع الجوهرية لوجوده))[39] .

يمثّل اللامعقول كلّ ما هو استنكار للطابع السقيم الذي تتّسم به اللغة الخاوية المبتذلة ، وتنديدٌ بالعمل المسرحي الممجوج الذي نعلم خاتمة أحداثه مسبقاً لعدم الابتكار والتجديد فيه . فقد يقدّم الكاتب في مسرحه سلحفاة يحوّلها بعدئذٍ إلى حصان سباق ثمّ يسحرها لتصبح قبعة أو أغنية أو أي شيء يروق له ، فهو يجرؤ على كلّ شيء في المسرح كما لو كان يؤمن بتناسخ

الأرواح ، وأنّ كلّ شيء يمكن أن يتقمّص أي شيء . فالمسرح خير مكان تزدهر فيه الجرأة في الابتكار كما يطيب لها . ولا يحدّ من هذه الجرأة وذلك الخيال المسرحي سوى الإمكانيات الفنية والآلية[40]. فخيال الكاتب هنا قائمٌ على الخلق والإلهام ، وهو لا يعترف بقانون فنّي غير قانون خياله[41].

ويرى (لطفي ڤام) أنّ العالم الذي يبتكره مسرح اللامعقول لا يمكن أن يكون باطلاً مزيفاً إنّما هو يكون كذلك لو أراد أن يقلّد الحقيقة فتقليد الواقع ليس سوى تقديم حقيقة مزيفة . وبهذا لا يخرج مسرح اللامعقول عن نطاق الحقيقة طالما هو يلجأ إلى الخيال والابتكار، ومن ثمّ فإنّ من حقه أن يذهب إلى القول بأنّ العالم الذي نعيش فيه يبدو له غير معقول وأنّ عقله أو تفكيره لا يمكنه أن يفهم هذا العالم[42]. وهذا ما يؤكّده (البير كامو) بقوله : ((إنّ الواقع لا معقول ، وتافه ليس هذا سبب شقاء الإنسان ، بل سبب شقائه أنّه لم يدرك تماماً هذا اللامعقول))[43] . لذلك يسعى مسرح اللامعقول دوماً إلى تنشيط الموقف العقلي واستفزازه ومخاطبة مستوى أعمق في ذهن المتلقّي ، فهو يتحدّاه في أنّ يجد معنى في لا معنى وأن يواجه الوضع في وعي لا أن يحس به في غموض ، أن يدرك ضاحكاً العبثية الأساسية[44] . وبهذا يتّسع المفهوم ليشمل : ((الكشف عن تفكير الإنسان الهمجي النابع عن عقلية القطيع ، والقائم على غير فهم أو إدراك سليم والذي قد يسوي في النهاية بين الناس وبين قطعان من الخراتيت تتحرك آلياً بلا عقل))[45] . كذلك الكشف ((عن وحشية الإنسان المخيفة والمختفية وراء ظاهره المزيف والذي لا تتحقق فيه قيم أو مُثلٌ أو طهارة))[46] .

وهكذا يمكن لمسرح اللامعقول أن يقدّم ((إحساساً تخمينياً أو معرفة حدسية لما هو مكان الإنسان في الوجود فهو لا يتحرّى عن مشكلات سلوكية وأخلاقية ، ولا يعنى بالإدلاء بالمعلومات أو بعرض مصائر شخصيات موضوعية كما أنّه لا يكترث بتصوير أحداث أو بسرد مغامرات . إنّه محاولة فنية للإجابة عن أسئلة ميتافيزيقية تؤرق روح الإنسان في بحثه عن معنى للوجود))[47] . وقد يكون ذلك من خلال اختبار متانة العلائق بين الموجودات وإنكار منطقيتها مبدئياً وإظهار كلّ شيء في غير مكانه الطبيعي ممّا يثير الدهشة لكنّها دهشة مزدوجة الأثر[48] . إذ يرى (كامو) : أنّ اللامعقول غير موجود في الإنسان وغير موجود في العالم. إنّه موجود في الصلة، في العلاقة بين الأشياء في علاقة الإنسان بالوجود؛ فلو أخذنا قطعة من الحياة وليكن يوماً عادياً مألوفاً، نجد أنّ هذا اليوم يتلخّص في الاستيقاظ، الذهاب إلى العمل أربع ساعات متوالية تليها استراحة قصيرة ثمّ عودة إلى العمل أربع ساعات أخرى ثمّ إلى المنزل

فالنوم فالاستيقاظ ... وهكذا يبدو كلّ جزء على حدة معقولاً جداً، إلاّ أنّ علاقة هذه الأجزاء غير معقولة، إنّها تفقد الإنسان حريته كما تفقد الأشياء قيمتها فكلّ شيء يتساوى في الأهمية كما يقول (كاليغولا)، عظمة روما مثلاً ووجع المفاصل[49]. وهكذا يكون الشعور الناجم عن فقدان الأهمية سبباً يجعل الإنسان مسيراً لا يقوى على الاختيار ومغلوباً على أمره. أي أنّه ليس هناك ((شخصيات مدمرة ، وليس ثمة شخصيات بناءة بالفطرة، وإنّما بنية الحياة هي التي توزّع الأدوار على الشخصيات فتسبب دمارها. والدمار يقع لأنّ الشخصيات لا تستطيع أن تغيّر أدوارها. فكلّ شخصية تسعى إلى تحقيق رغبتها ولكن العلاقات الناجمة عن وجود هذه الشخصيات تحول دون تحقيق الرغبة))[50]. لذا يبدو الإنسان في عصر العبث تائهاً وضائعاً، وتبدو كل تحركاته في الحياة عابثة وبلا جدوى، وقد انعكس ذلك من خلال مسرح اللامعقول[51].

هكذا يكون العبث في مسرح اللامعقول : ((عبث في التعبير عن الوجود الغير معقول بعكس اللامعقول عند كتّاب المسرح الوجودي، فهو اللامعقول في الوجود ذاته لا في التعبير عنه))[52]. إذ تحرّر كتّاب العبث من كل القيود والقواعد... من كلّ شيء شرط أن يكونوا صادقين. وحطّموا خصائص المسرح الأدبية، والأصول التقليدية ، وجرّدوا المسرحية من كلّ طابع أدبي ، في محاولة لتقديم مادة الدراما الحقيقة[53] .

وهنا لا بدّ من أن نذكر أنّ الجديد الذي أتى به مسرح اللامعقول فيما يختصّ بعنصر العبث ، انصرف عن الوعي بالعبث اليوناني القديم الذي تحكّمت فيه آلهة وأساطير لا ترحم ، كما تشير بذلك التراجيديات اليونانية المعروفة ، مضمناً هذا العنصر طابع المهزلة والشكل الهزلي الساخر . أي بمعنى أنّه عبثٌ يُثير السخرية ويبعث على الضحك في أقوى مواقف الجد والتراجيديا .

وهكذا ينحو العمل المسرحي منحًى خاصاً في نهاياته التي يجب أن تحمل عنصر السخرية في الختام كمحصلة من محصلات سخف الحياة وعبثها وتفاهتها[54] . ولا شكّ أنّ في ذلك دعوى إلى أن نفترض الأشياء في غير مواضعها المألوفة وإفراغ الواقع من إطاره المألوف عن طريق التهكّم[55] . وهي بمثابة دعوى أخرى إلى اعتناق مبدأ عدم كفاية النظم المنطقية في كشف الحقيقة انطلاقاً من أنّ مسرح اللامعقول مسرح غير خاضع للقاعدة المنطقية وليس في موضوعه أو مضمونه أو لغته ما يخضع للتفكير المنطقي[56] . فعالم اللامعقول تفقد فيه كلّ الأحداث حتّى أكثرها غرابة غرابتها ، وتبدو عادية ومألوفة[57]. وفي هذا السياق يقول (يونسكو)

في معرض حديثه عن مسرحيته (أمديه) : ((إنّها شريحة من الحياة ومسرحية واقعية فإذا ما انتقدت على أساس أنّها شيء مألوف ، فلا شكّ أنّه لا يمكن الطعن فيها بحجّة عدم مطابقتها للحياة. وهكذا سترون أنّ نبات الفطر سينمو وينتشر فوق المسرح ، وهذا دليل لا يدحض لا لإثبات أنّ نبتات الفطر هذه نبتات حقيقية فحسب وإنّما لإثبات أنّها نبتات طبيعية أيضاً))[58] . فمسرح اللامعقول يؤمن بأنّ الحقيقة هي : ((مزيج محكم من المعقول واللامعقول وهو ما يفضي إلى الاعتداد بإبراز التضاد الجذري في كلّ شيء . التضاد بين الرقة والدمامة ، بين الكلمة المنطوقة والحركة المؤدّاة ، بين التفاهة والمستحيل ، بين المضحك والمأساوي ... بصبغة من القسوة والفظاظة))[59] .

وفي ضوء ما تقدّم من عرض لمصطلح اللامعقول ومفهومه في الدراما ، يتبيّن لنا تعدّد التسميات المستعملة في التعبير عن هذا المصطلح ، واشتراكها جميعاً برؤيا مركزية ثابتة في التعبير عن عبث الوجود ولا معقوليته وإن اختلفت هذه التسميات.

الخاتمة

لقد كان (مسرح اللامعقول) واحداً من المفاهيم والمصطلحات الفنية الإشكالية بوصفه مسرحاً حرّاً وغير مقنن اتخذ أسلوبه الخاص في التعبير شكلاً ومضموناً دون الالتفات إلى الوراء ، فتعددت مسمياته وتشعّبت على الرغم من تشابه رؤاه ووحدة أهدافه ، حتّى أنّ كتّابه ممن ينضوون تحت هذا النوع من الكتابة المسرحية كان جُلّهم يحتجّ على هذه التسمية بل ويرفضها جملة وتفصيلاً ، متّخذاً لنفسه مسمّىً آخر يناسبه ، ولهذا جاء انتماؤهم لهذا النمط من الكتابة تحت مسميات عدّة إلاّ أنّها في النهاية كانت تصب لصالح همٍّ مركزي ورؤية مشتركة من قبل الجميع يمثلها عبث الوجود ولا جدواه .

ـ هوامش البحث ومصادره

(1) موسوعة المصطلح النقدي (اللامعقول) ، آرنولد . ب هنجلف ، ترجمة : د. عبد الواحد لؤلؤة ، بغداد ، دار الرشيد للنشر ، 1979 : هامش ص9 .

(2) نقلاً عن : المصدر نفسه : 11 .

(3) Oxford Advanced Learners Dictionary A. S. Hornby : p 4 .

(4) ينظر : الاتجاهات المعاصرة في المسرح ، عبد الغفور نعمة ، البصرة ، مطبعة حداد ، ط1– 1971 : 74 .

(5) المعجم المسرحي ، د. ماري إلياس ، ود. حنان قصاب ، بيروت ، مكتبة لبنان ناشرون ، ط2– 2006 : 303 .

(6) ينظر : مسرح العبث ، صموئيل بيكيت وآخرون ، مسرحيات عالمية ، الهيأة المصرية العامة للتأليف والنشر ، 1970 : 399 .

(7) Oxford Concise Companion to English Literature, by Margret Drabble and Jenny Stringer Coxford University press, 2007 : p 3 .

(8) ينظر : دراما اللامعقول، مارتن أسيلين، ترجمة: صدقي عبد الله حطاب، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء، 1970: 9.

(9) الموسوعة المسرحية ، جون رسل تيلر ، ترجمة : سمير عبد الرحيم الـجلبي ، الجزء (1) بغداد ، سلسلة المأمون ، ط1– 1990 : 13 .

(10) ينظر : العبث ، البير كامو ، ترجمة : سالم نصار ، بيروت ، منشورات دار الاتحاد : 175–176 .

(11) ينظر : مسرح العبث ، د. نعيم عطية ، سابق : 398 .

(12) ينظر : موسوعة المصطلح النقدي ، سابق : 20 .

(13) دراما اللامعقول ، أسيلين ، سابق : 7 .

(14) ينظر : المعجم المسرحي ، سابق : 304 .

(15) ينظر : معجم المصطلحات الأدبية ، بول آرون وآخرون ، ترجمة : د. محمد حمود ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، ط1–2012 : 729 .

(16) ينظر : المعجم المسرحي ، سابق : 393–394 .

(17) ينظر : المسرح بين الفكرة والتجريب ، د. كمال عيد ، طرابلس – ليبيا ، ط1– 1984 : 574–575 .

(18) المعجم المسرحي ، سابق : 394 .

(19) المصدر نفسه : 300 .

(20) المصدر نفسه : 301 .

(21) المسرح الفرنسي المعاصر ، لطفي قام ، الدار القومية للطباعة والنشر : 219 .

(22) الاتجاهات المعاصرة في المسرح ، سابق : 77–78 .

(23) ينظر : معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ، د. إبراهيم حمادة ، القاهرة ، دار الشعب ، 1971 : 251 .

(24) ينظر : المسرح الفرنسي المعاصر ، سابق : 220 .

(25) ينظر : المصدر نفسه : 227 .

(26) ينظر : اتجاهات في الفنون المسرحية المعاصرة ، د. كمال الدين عيد : 136 .

(27) مسرح الاحتجاج والتناقض ، جورج ولورث ، ترجمة : د. عبد المنعم إسماعيل ، بيروت ، المركز العربي للثقافة والعلوم : 10 .

(28) المسرح : أسطورته وحقيقته ، جان بول سارتر ، ترجمة : حسنين حاصباني ، مجلة الحياة المسرحية ، دمشق ، العدد (3) ، 1977 : 24 .

(29) ينظر : اتجاهات في الفنون المسرحية المعاصرة ، سابق : 136 .

(30) دراما اللامعقول ، سابق : 13 .
(31) ينظر : مسرح العبث ، سابق : 401 .
(32) ينظر : المصدر نفسه : 403 .
(33) مسرح يونسكو ، سابق : 11 .
(34) ينظر : المصدر نفسه : 15 .
(35) دراما اللامعقول ، أسيلين ، سابق : 24 .
(36) مسرح العبث ، سابق : 401-402 .
(37) ينظر : المصدر نفسه : 402 .
(38) المسرح الفرنسي المعاصر ، سابق : 225 .
(39) موسوعة المصطلح النقدي ، سابق: 22 .
(40) ينظر : المسرح الفرنسي المعاصر ، سابق : 224 .
(41) ينظر : المصدر نفسه : 224 .
(42) ينظر : المصدر نفسه : 225 .
(43) اللامعقول في مسرح كامو ، حنا عبود ، مجلة الحياة المسرحية ، دمشق ، العدد (4-5) ، 1978 : 44 .
(44) ينظر : موسوعة المصطلح النقدي ، سابق : 23 .
(45) المسرح أُصوله واتجاهاته المعاصرة ، د. محمد زكي العشماوي ، بيروت ، دار النهضة العربية : 141 .
(46) المصدر نفسه : 140 .
(47) مسرح العبث ، سابق : 403 .
(48) المصدر نفسه : 403 .
(49) ينظر : اللامعقول في مسرح كامو ، سابق : 44 .
(50) مفهوم الدمار بين مسرح تشيخوف ومسرح اللامعقول ، حنا عبود ، مجلة الموقف الأدبي ، دمشق ، العدد (83) ، 1978 : 82 .
(51) ينظر : المسرح والقضايا المعاصرة ، د. يحيى البشتاوي ، عمان – الأردن ، ط1-2011 : 158 .
(52) مسرح يونسكو ، سابق : 16 .
(53) ينظر : المصدر نفسه : 16-17 .
(54) ينظر : المسرح بين الفكرة والتجريب ، سابق : 577-578 .
(55) ينظر : مسرح العبث ، سابق : 404 .
(56) ينظر : المسرح أصوله واتجاهاته ، سابق : 136 .
(57) ينظر : مسرح العبث ، سابق : 404 .
(58) دراما اللامعقول ، أسيلين ، سابق : 27 .
(59) مسرح العبث ، سابق : 405-406 .